دار المنظومة
DAR ALMANDUMAH
الرواد في قواعد المعلومات العربية

العنوان:	التحولات الاجتماعية و الثقافية والجمالية و تأثيرها على العماره الحضرية العربية
المصدر:	مجلة كلية الآداب
الناشر:	جامعة المنصورة - كلية الاداب
المؤلف الرئيسي:	صيام، عزة أحمدعبدالمجيد
المجلد/العدد:	ع 21
محكمة:	نعم
التاريخ الميلادي:	1997
الشهر:	أغسطس
الصفحات:	123 - 142
رقم MD:	142007
نوع المحتوى:	بحوث ومقالات
قواعد المعلومات:	AraBase
مواضيع:	مستوى الدخل، العمارة، العوامل الاجتماعية، العوامل الثقافية، التصميم المعماري، الطبقات الاجتماعية، النمو الحضري، الاحوال الاجتماعية، الفقر، مصر، البلديات، الإدارة المحلية، التنمية العمرانية، التحولات الطبيقية، العمارة الحضرية، العشوائيات
رابط:	http://search.mandumah.com/Record/142007

© 2021 دار المنظومة. جميع الحقوق محفوظة.
هذه المادة متاحة بناء على الإتفاق الموقع مع أصحاب حقوق النشر، علما أن جميع حقوق النشر محفوظة. يمكنك تحميل أو طباعة هذه المادة للاستخدام الشخصي فقط، ويمنع النسخ أو التحويل أو النشر عبر أي وسيلة (مثل مواقع الانترنت أو البريد الالكتروني) دون تصريح خطي من أصحاب حقوق النشر أو دار المنظومة.

جامعة المنصورة
كلية الآداب

التحولات الإجتماعية والثقافية والجمالية وتأثيرها على العماره الحضريه العربية

دكتـور
عزه أحمد عبد المجيد صيام
مدرس علم الإجتماع
بكلية الآداب - (فرع بنها) جامعة الزقازيق

مجـلة كليـة الآداب - جامعـة المنصـورة
العدد الحادى والعشرون - أغسطس ١٩٩٧

ينطوى الحديث عن العمارة على أهمية بارزه فى الكشف عن مجمل الجوانب الإبداعية للأثر المعمارى ودوره فى إغناء الثقافة الفنية والجمالية العامة، بالإضافة إلى أن أهمية هذا الحديث تمتد أيضا إلى نواح أخرى بعضها إجتماعى وبعضها إقتصادى، من ذلك «الفضاء المحصور» ، الذى يطلق عليه «العماره» .

وعلى الرغم من أن فنون العماره تعتبر من أقدم وأهم الفنون الإنسانيه التى نالت إهتمام البشر فى كافة المجتمعات، والتى تمس مباشرة أساليب حياة الناس، فهى تنظم سكناهم وأماكن عملهم ومجال أنشطتهم، وتخطط مدنهم وقراهم.. الخ، على الرغم من ذلك، فقد ظلت العماره، خلقاً وتعبيراً، إشكالية هامه يكتنفها بعض الغموض، المشوب بالندره الواضحه. وهو أمر ينطوى على قدر ملحوظ من الإخلال المتصل وإكتمال الثقافة الفنية التى نتطلع إليها جميعا، ونطمع فى تجاوزها، وصولا إلى قاعدة أوسع لأسس ومعايير المعرفة الإنسانية بكل أنماطها ومجالاتها (١) .

والحقيقة، فإن العماره العربية تجتاز اليوم محنة قاسيه، إذ نراها، تبتعد كثيرا عن ثقافة وعادات وأسلوب حياة أهل البلاد، وإستبدلت بعماره أجنبية لم يكن بالإمكان أن تنبت فى أرضنا، إذا ماسارت الأمور على طبيعتها، أو دون الإنفتاح على العماره الغربية، فى مقابل القصور الملحوظ فى دوائر الإهتمام العربية بتطوير العماره الوطنية، والتنكر لها، بحجة مسايرة التقدم، أو المعاصرة أو الوصول إلى العالمية، والجرى وراء عمارة الحداثة Modern Architecture التى نشأت على شعار سوليفان (الشكل يتبع الوظيفة) ، وتمثلت الرأى المأثور عن ميس فان درروه Mies Van Der Rohe ، أن (الشكل ينتج عما نعمل، وليس هناك شكل فى حد ذاته (٣) .

وهكذا رفضت حركة عماره الحداثة، كل أشكال وطرز الماضى، وباعدت بين العماره والمكان (فقدان المكان) وتميزت بالاعتباطيه وفقدان الشخصية، مع الإخفاق فى تحقيق هوية إنسانيه. أو هى على حد تعبير كريستيان نوربرج Christan Norberg «عماره خرساء، لم تعد تقول شيئا» (٤).

ومن هنا أجد لزاما على قبل التطرق إلى التحدث عن العماره العربية بالذات، ضرورة التحدث قليلا عن العماره بمعناها الواسع الكبير، ومكانتها فى ثقافة الإنسان وحضارته.

فمن تعاريف الثقافة أنها حصيلة تفاعل ذكاء الإنسان مع البيئة الطبيعية. ويظهر صدق هذا التعريف بوضوح فى كل الفنون التشكلية، ومن أخصها العماره. ففى التصوير والنحت مثلا يقوم الإنسان بمحاكاة الإشكال الطبيعية من حيوان ونبات وجماد مما يقع تحت بصره من أصباغ وألوان ورخام وأحجار، وغير ذلك من عمليات التعبير عن أحاسيسه، وعن طريقة تفاعله مع البيئة. أما فى العماره، فإن المثل الذى يحتذى لا يوجد فى الطبيعة لمحاكاته، إنما يتمثل فى البيئة التى توحى إليه بإنجاز عمليات التصميم، بمراعاة خصائص الإنسان - الذى يصمم له المعمارى مسكنه - الفسيولوچية والإجتماعية والنفسيه. من الضرورى على المعمارى إذن أن يبتكر تكويناته الهندسية فى هذا الإتجاه، وأن يبدع تصميماته لخدمة الإنسان، وإشباع حاجاته الأساسية. وليس صدفه أن يطلق بعض النقاد على فنون النحت والتصوير، «فنون المحاكاه»، وفنون العماره والموسيقى «فنون مجرده». غير أن هذا التقسيم لا يجوز أن يؤخذ على إطلاقه ، إذ لا يمكن أن تخلو أعمال المصور أو النحات من درجة ما أو نوع ما من

التجريد، كما لا يمكن أن تخلو العماره والموسيقى من نوع ما، أو من درجة ما من محاكاة الطبيعة (٥) .

ومع أن طريقة إستخدام أشكال الطبيعة الحيه فى العماره ليس بالحدث الجديد، فإن أسلوب «العماره الحيه» الحديث، يختلف تماما عما كان متبعا فى السابق. حقا أن الإنسان ظل يستوحى فى نشاطه المعمارى والمدنى، على إمتداد التاريخ البشرى، أشكال الطبيعة الحيه وتركيباتها، بيد أن جميع هذه الإستعمالات والإستخدامات كانت تتم بطرق وأشكال تعتمد بدرجة كبيرة على السليقة والحدس الفنى، فضلا عن أن هذه الإستعمالات كانت لا تتعدى المعالجات السطحيه، وتفاصيل بعض العناصر وأجزاء المبنى كأشكال الأعمده وتيجانها، أو بعض اللوحات الزيتيه والزخرفيه التى نجدها على بعض أسطح الأبنيه وواجهاتها، فى حين يعنى التصميم الجديد وفق تيار «العماره الحيه» بالمقام الأول على التحليل العلمى والإستقراء المركز لهذه الأشكال (الفورم) الجديده من خلال رؤية واضحة للمضمون من دون إسقاط أو إهمال لتأثير وسائل الإتصال الأخرى (٦) .

على أن من المفيد هنا، الإشارة إلى أن حدود «العمارة الحيه» يجب ألا تنحصر فى إيجاد الحلول النفعية فقط، إذ أن هذه العملية ترتبط بشكل حتمى، بالإستيعاب الكامل لجميع مقومات العماره، وعناصر تكويناتها الأخرى، وبالدرجة الأولى بالإستيعاب الجمالى لأشكال الطبيعة الحيه فى العماره الحيه. ومن هنا فإن العمارة الحيه يمكنها أن تحل قضايا ومعضلات العماره الحديثه فى مختلف مجالاتها التكنيكية والإقتصادية والنفعية والجماليه، وتتضمن مثل هذه الحلول طابع كذلك، الإختصاصات المتعددة للعماره، والمشكلات الحضرية، كما يمكن فى بعض الحالات أن تحمل هذه

الحلول مميز للتحولات الأساسية، والإنعطافات الخطيره لمجمل المفاهيم الهندسه المعمارية (٧) .

فإذا ما عدنا إلى الحديث عن العماره العربية والتحولات الإجتماعية والثقافية والجماليه التى شهدتها، وتأثرت بها فى مرحلة ما بعد التشكل، فلابد إذن من التوقف أمام بعض الأبعاد الإجتماعية والثقافية ذات الصلة بفنون العماره الحضرية فى المدن العربية خلال هذه الفترة، فى إطار مرجعى، يتخذ من البعد الإنسانى أو البيئة الإنسانية، محكا أساسيا للحكم على جماليات وفنون العماره العربية بكل ما تحمله هذه البيئة الإنسانية من دلالات إجتماعية وثقافية متباينة.

ولقد كشفت طائفة غير قليلة من البحوث المعنية بدراسة هذه القضية، أن إقتصار المخطط المعمارى على ما يسمى بالأساسيات أو الجوانب الفنية عند إنشاء المناطق السكنية فى المدن الكبرى، وتجاهل الأبعاد والتحولات الإجتماعية المؤثره على البيئة العمرانية، إنما يعنى فى التحليل الأخير، عدم ملاءمة مثل هذه التصميمات المعمارية، للوفاء بالإحتياجات الإجتماعية والنفسية للسكان. ولعل هذا الكشف فى الحقيقة، يمثل إختزالا للعديد من الجهود العلمية المتمثله فى نمو الدراسات والبحوث الإجتماعية والسلوكيه التى أشارت إلى أن التنمية الثقافية للفرد تتوقف إلى حد كبير على تنميته الإجتماعية، وحريته فى الإتصال بغيره، وحقه فى تقرير مصيره فى حياته العامه والخاصه (٨) .

أن النظر إلى العماره من زاوية إجتماعية، هو فى الحقيقه مسألة على قدر كبير من الأهمية، وتستمد هذه النظره أهميتها من ضرورة الإتفاق على معيار أساسى يتصل بقدرة العماره (المسكن)، على الوفاء بالحاجات

الأساسية للسكان، بصرف النظر عن مستواهم الإجتماعى أو الإقتصادى أو الثقافى. أو يقضى بضرورة فصل المجاورات السكنيه عن الضواحى أو المناطق الصناعية أو التجارية، وإقصائها بعيدا عن محور الحياة فى قلب المدينه النشط إقتصاديا... ألخ. غير أن هذا التباعد - فى حقيقة الأمر - وأن يكن مطلبا بشريا، فإن له بعض المردودات المعاكسه، إهمها إفتقار هذه الضواحى التابعه للمدن، إلى العلاقات الإجتماعية المرنه التى تربط الناس وبعضهم برابطة الجوار، والمساعدات المتبادلة، وبالتالى شعور الفرد بالوحدة والعزله وعدم التكامل الإجتماعى (٩) .

أن التصميم المعمارى يجب أن يقترن دائما بمجموعة من الدراسات والبحوث الإجتماعية المتعمقه للمتطلبات المعيشيه Existential Spaces المتباينة للسكان. وتجدر الإشارة هنا إلى بعض التجارب التقليدية التى شهدتها مصر والسودان فى مشروعات تهجير أهل النوبة بعد إقامة السد العالى، إلى كوم أمبو فى مصر والى خشم القرية فى السودان، وما نتج عنها من بعض الأخطاء فى التخطيط والتصميم المعمارى، لعدم مراعاة البعد الإجتماعى لهم، وتجاهل العادات والتقاليد والأنشطة الفردية والجماعية لمستخدمى هذه الوحدات السكنية.

وتأسيسا على ذلك تحاول الدراسة الآن أن تنتقى بعض الأنماط أو المؤشرات المتصلة بالتحضر والتحولات الحضرية للتعرف على آثارها على العماره العربية، ورصد مجمل التعاملات بين العماره - أقرب الفنون إلى البشر -، وبين الجماهير، بكل ما يحملونه من ثقافة ومعتقدات وسلوك وقيم وإتجاهات وأفكار وتصورات.

أولا : البعـد الطبـقى :

لعل أول بعد إجتماعى خلف تأثيره على العماره العربية، هو البعد الطبقى، الذى نعنى به هنا وجود تقسيم للطبقات الإجتماعية الأساسية فى المجتمع - أى مجتمع -، وبطبيعة الحال فإن هذه الطبقات تتفاوت من حيث القوة الإقتصادية، ومستوى الدخل ، ومصادر الثروة وأنماط الملكية، كما تتمايز هذه الطبقات فيما بينها أيضا، على أساس المتعقدات والأفكار وأسلوب الحياه... ألخ. وهكذا يختلف البناء الطبقى من مجتمع إلى مجتمع آخر، فالمجتمع الأمريكى يختلف فى ذلك عن المجتمع اليابانى، والأخير يختلف عن المجتمع المصرى، الذى يختلف بدوره عن المجتمع فى المشرق العربى أو فى المغرب العربى. الأمر الذى يعنى أن هناك نمطا خاصاً من التطور الإجتماعى والإقتصادى يسود كل مجتمع، وأن هذا النمط له إنعكاساته الواضحه على المستوى الطبقى فى المجتمع المعنى، كما أن له إنعكاساته المباشرة على الأنماط المعمارية السائدة والشائعة فيه. فمدينة القاهرة مثلا بها أحياء متفاوته طبقا لمعايير معينه وهذه المعايير ليست بعيدة عن متناول المعماريين، مثل مدى توافر الخدمات، ومعدل التزاحم السكنى، وأهمية الموقع ، وسهول الوصول إليه... ألخ (١٠). هناك إذن خريطة معمارية تسير جنبا إلى جنب الخريطة الطبقية.

كما تجدر الإشارة إلى أن حجم الطبقات ذاته يمثل حجما خلافيا فى مجتمعاتنا العربية، فهو يختلف من مجتمع لآخر، فهناك مثلا مجتمعات يتسم فيها البناء الطبقى بتضخم الطبقة الوسطى، بينما توجد هناك مجتمعات أخرى يعانى الهرم الطبقى فيها من إتساع قاعدة الطبقة الدنيا. ويكفى أن نلقى نظره عابره على الخريطه المعمارية للقاهرة، وكيف طرأ عليها قدر كبير من التحولات منذ الخمسينات وحتى الآن، وربما يرجع ذلك

إلى عوامل التهميش، والفقر، والنمو الحضرى المتسارع، والعشوائيات... ألخ. وفى هذا الخصوص تؤكد العديد من الدراسات أن التركيب الطبقى، يلعب دورا كبيرا، فى تشكيل الأنماط المعمارية السائدة فى المجتمع. فلقد دفعت التحولات الإجتماعية والإقتصادية التى شهدتها العاصمة المصرية منذ السبعينات من القرن الراهن، بالمصمم المعمارى، إلى تلبية إحتياجات الصفوة الحضرية الصاعده من الإسكان الفاخر الجديد، والتوسع فى بناء الأبراج السكنية، وسكنى الفيلات، وإنشاء التجمعات السكنية الجديدة مثل الشروق، والياسمين، والنخيل، والربوه وغيرها مما يمثل قوة الطلب الحضرية للصفوة من أبناء العاصمة، فى مقابل أزمة إسكانية طاحنة للجماهير، لا تجد لها فكاكا إلا من خلال تجمعات سكنية بائسه ومتدهوره لفقراء الحضر، تتوزع على بعض أنماط العشش، وأسطح المنازل وإسكان العشوائيات، وسكنى القبور.. ألخ. هكذا نجد البعد الطبقى يمثل بعداً أساسياً ويفرض بقوة على البناء المعمارى والبيئة المعمارية.

ثانيا: دور الأيديولوچيا الحضرية في تشكيل البنية العمرانية:

ولا نستطيع أن نغفل هنا الإشارة إلى دور الأيديولوچيا الحضرية فى تفسير النمط العمرانى العربى. فقد ظلت العماره المصرية حتى بداية القرن الراهن، تعبر عن ملامح القرون الوسطى، إلى أن جاء محمد على وخلفائه الذين أبدوا إهتماما كبيرا بتطويرها، وتوسيع نطاقها، فمنحوا البلاد خلال النصف الثانى من القرن، بعض العناصر الهامه التى تكون الهيكل الإقتصادى الحديث (١١) .

لقد كانت مصر من أوائل دول العالم التى أنشئت فيها السكك الحديدية (١٨٥١)، كما أشتهرت مصر بين أقرانها من الدول، عندما قامت بإنشاء

مكتب بريد حكومى فى عام (١٨٦٥) وإفتتحت أول خط تلغرافى فى عام (١٨٥٤) وفى عام (١٨٤٣) بنى فى القاهرة المدرسة البولتيكية السادسة فى العالم. ويذكر روبرت مابرو R.Mabro أن بالقاهرة والأسكندرية ومنطقة القناة وبعض المدن الإقليميه الأخرى، الكثير من المرافق العامه. وكانت هذه التطورات المبكره مطلبا أساسيا، وإستجابة حقيقية لنمو إقتصاد التصدير (١٢) .

لقد كان تطور العماره المصرية، مرتبطا برغبة خلفاء محمد على - وخاصة إسماعيل - فى الأخذ بمظاهر المدنية والعماره الأوربية. لقد أنفق إسماعيل بسخاء على تطوير عماره العاصمة وفقا للنموذج المثالى الذى كانته باريس نابليون الثالث فى نظر الأمراء والأثرياء الراغبين فى خلق فراديس أرضيه حولهم، فأنشأ حى الإسماعليه ليكون منطقة سكنيه للطبقة العليا كما زود بعض أحياء المدينة بالكهرباء والمياه النقيه. ولعل محاولاته العديده، بتأثير ذوقه الفرنسى لتخطيط أحياء القاهرة، وشق الشوارع الجديدة بها وإهتمامه بتجميلها بهذه «البواكى» المنتظمه على إمتداد بعض طرقاتها، ما جعل القاهرة شبيهة بباريس (شارع محمد على فى القاهرة، مقابل شارع ريفولى فى باريس) .

ولقد إمتدت هذه النظره أيضا لتشمل العمارة السكنية فى القاهرة، والتى أصبح لها نصيب من الفن المعمارى الإيطالى المتميز بجماله ورشاقته. وعلى الصعيد الثقافى لم يكن إقامة الأوبرا المصرية فى ذلك الوقت، خاليا من دلالة ثقافية وحضرية. فبناء على طلبه، وضع فيردى Verdi أوبرا عايده Aida سنة (١٨٧١م) التى عرضت لأول مرة على مسرح الأوبرا الجديدة إحتفالا بفتح القناه سنة (١٨٦٩م)، وأن كان ثمن ذلك

فادحا على مواطنيه. فضلا عن الإهتمام بالقصور، فقصر عابدين من طراز قصر بكنجهام ، وقصر الأمير محمد على يحمل طابع عهد الملك إدوارد فى إنجلترا... ألخ، ولعل هذا وغيره من رموز حضريه، وقد وسمت العماره المصريه فى الحضر بطابع خاص، ودفعت بعمران القاهرة، لأن يكون مماثلا للعمران الأوربى (١٣) .

ثالثا: دور الدولة والبلديات في تدعيم التحولات العمرانية:

ويقتضى الأمر كذلك ألا نغفل ذلك الدور المتميز الذى تباشره الدوله من خلال أجهزتها البلديه، ومواقفها من قضية التحضر والنمو العمرانى. حيث يفترض أن تمتلك هذه الأجهزه والمؤسسات الرسمية التابعة للدوله، ما يمكن أن نطلق عليه «السياسه المعمارية». وهناك كتابات كثيره متوافره حول ظاهره معروفه الآن فى العالم العربى هى ظاهره الدوله الرخوةSoft State التى تحوى أنظمة بلدية متراخية، تسودها ضوابط غير فاعلة. أن هذه الظاهرة تمثل شيئا موصولا فى تاريخ بعض المدن العربية. وإذا كانت هذه المدن قد عرفت صورا مبكره من التخطيط الحضرى، كالميادين الكبيرة، والحدائق العامه، فإن ذلك يعود إلى النزعات الخيريه لبعض الحكام، أكثر مما يعود إلى إعتبارات بيئية وتنظيميه (١٤) .

ولعل هذا النمط من إدارة المدن، إنما يشير إلى بعض السياسات الحضرية الفوضويه السائده فى المدينة العربية، والتى تقوم على مبدأ التجاهل للأحداث وعدم الإكتراث لما يحدث فى المجتمع من تغيرات أساسيه تتصل بالعمران البشرى فى البيئه العمرانيه بوجه عام. والحقيقه، فإن مثل هذه السياسات، إنما هى إشارة ضمنيه إلى أن العقد الإجتماعى فى قطاع العمارة والإسكان، المبرم بين الحاكم والمحكوم، قد بات

مفسوخا، وهو ما أعطى الفرصة لوجود سوق سوداء Black Market فى مجال التشييد والبناء، كما فتح الباب أمام المضاربين والفوضويين وسيئ السمعه لأن يعيثوا فسادا فى الأرض. فيخالفون القوانين، ويتجاوزون ما صرح لهم به من شروط أو إرتفاعات.. ألخ، حتى بدت العماره الحضرية فى بعض المدن العربية كنشاز معمارى غير متناسق أو متكامل مع بقية المنظومه الحضرية العمرانية العربية. موقف الحكومات إذن من المشهد الحضرى، هو موقف حاسم ومؤثر على العماره الحضرية العربية، بما فى ذلك موقف الأنظمة البلدية المتمثل فى تحقيق أدوارها فى تنظيم الخدمات العامة فى المدينة العربية (١٥) .

رابعا: التحولات الطبقية والملامح الايكولوجية لفنون العمارة الحضرية:

شهدت الأقطار العربية منذ النصف الثانى من القرن الراهن، تحولات هامة فى فنون العماره الحضرية، وفى علاقاتها مع ظهيرها المحيط بها، وظهور تباينات إقتصادية فى مسألة الثروه، التى كان لها مظاهرها البارزه المتصلة بتدعيم التباين الطبقى بين المجموعات السكانية فى هذه الأقطار، وفى ظهور بعض الملامح الأيكولوجية المميزة لبعض أنماط العماره فى المدينة بوجه عام. وتجدر الإشارة هنا إلى نمو أحياء السكن الفقير والأكواخ والأحواش... ألخ، وفى بعض الأحيان نجد القلب القديم المكتظ يلفظ سكانه الفقراء نحو أحياء فقيرة تقع على الأطراف لتشكيل ما يمكن أن نطلق عليه «أحزمة الفقر» أو «دوائر البؤس» داخل المدن (١٦).

ولقد عانت المدينة العربية وما زالت، من ظاهرة خطيرة هى نشوء مدن «الأكواخ» و «الصفيح» التى يقطنها النازحون الفقراء من الريف، واللاجئون والعمال الأجانب غير المهرة. ومن المعروف أن بيروت أحيطت

منذ أكثر من ثلاث عقود بحزام الفقر الذى كان مسرحا دائما للحرب الأهلية، كذلك عرفت القاهرة بـ «مدن الأموات»، والأحياء ذات الطابع الفقير وغيرها مما يعانى من غياب مختلف الخدمات والتسهيلات الحضرية. كما عرفت مدينة بغداد «مدينة الثورة» التى أنشئت لإستيعاب المهاجرين الجدد من الريف، وخاصة من المناطق الجنوبية. وفى أطراف تونس مدن وأحياء عدة من هذا النوع مثل جبل الأحمر والسيده المنوبية وبرج على الريس وسيدى فتح الله (١٧).

وإذا ما جاز لنا أن نستشهد بحالة مصر، على أثر الإنفتاح الإقتصادى والهجرة إلى الدول النفطية، حيث تباينت خريطة توزيع الدخل والثروة. فسنشهد نموا ملحوظا فى مناطق سكنى الطبقتين الوسطى والعليا فى العاصمة المصرية. ففى القاهرة نجد أن النمو الحضرى السريع الذى شهدته مناطق «مدينة نصر» «ومصر الجديدة» فى «الشرق» ، والدقى «والمهندسين» فى الغرب، إنما يعكس نمو الطبقة الوسطى الجديدة التى قد تدعمت من خلال مكاسبها فى ظل الإنفتاح الإقتصادى من ناحية، وتراكم العائدات والمدخرات للعاملين المصريين فى الأقطار العربية الخليجية من ناحية أخرى (١٨) .

وبطبيعة الحال كان لتغيرات الخريطة الطبقية وتحولاتها الإجتماعية والإقتصادية، صعودا أو هبوطا، أثر كبير وهام فى تدنى أو إرتقاء البيئة العمرانية، وظهور أنماط وحلل سكنية متباينة، تفصح عن قدر كبير من المفارقة والاختلال فى مشهدى الإسكان والعماره فى مصر والعالم العربى.

خامسا : تباين وتداخل وتعايش الإنساق المعمارية الحضرية :

إنعكست كل هذه التحولات الإقتصادية والإجتماعية التى شهدتها المدينة بوضوح على مجمل الأنماط المعمارية الحضرية وبخاصة فى المدن التقليدية. ففى القاهرة والدار البيضاء وغيرهما، نجد الثنائية الحضرية ماثلة بوضوح، لتعبر عن تجاوز وتعايش حضر العصور الوسطى مع حضر القرن العشرين. والملاحظ أن معظم المدن الكبرى فى العالم العربى قد شهدت بعض العمليات الأيكولوچية كالغزو والتتابع والمركزية والتركز خلال العقود الثلاثة الماضية نتيجة للتحولات العامة التى شهدتها هذه المدن العربية. فنمو الطبقة الوسطى الجديدة دفعها إلى ترك مساكنها القديمة والحصول على مساكن أوسع وأفضل على أطراف المدينة، بينما تعرضت مساكنها القديمة إلى غزو الطبقة الوسطى الدنيا (١٩).

وتواجه الأحياء القديمة فى المدن العربية الكبرى ضغوطا شدسدة بسبب إفتقارها إلى الخدمات، فضلا عن الإغراءات التى تتعرض لها بسبب إرتفاع قيمة الأرض فيها. ولذلك فإن مصيرها المحتوم هو الإنقراض التدريجى، نتيجة لتغلغل القطاع العمرانى الحديث فيها، أو إنتقالها إلى الأطراف الحضرية لتشكل كردونات خاصة من السكن العشوائى، أو لتصبح جزءا من أحزمة الفقر التى تزداد نموا وإتساعا بمعدلات عالية.

أما أحياء الطبقة الوسطى الجديدة، فلم تعبر حتى الآن عن هوية معمارية واضحة، إذ يغلب عليها النمط المعمارى غربى الطابع، المستهلك للطاقة، القائم على التكثيف الرأسمالى الذى لا يتيح فرص تكوين مجاورات مشبعه إجتماعيا. وعموما، فلقد أبرز النمو الحضرى السريع وقلة الإنفاق الحكومى على المرافق والخدمات، مجموعة من المشكلات

الحضرية البيئية، كالتلوث وإزدحام المرور، الناجمة عن المركزية الطاغية، ومحاولة الإفادة من المرافق الإسكانية المتاحة فى المدن الكبرى بدلا من الإنطلاق إلى مراكز عمرانية جديدة، وإقامة بنية أساسية مستحدثة. ويرتبط ذلك بشيوع أنماط عمرانيه جديدة من السكن الفقير فى تلك المدن، مما أثر على الطابع المعمارى العام للمدن العربية الكبرى، وأفضى بها إلى تجمعات متجاورة تمثل كيانات متنافرة تختفى فى إطارها هويتها الحضرية (٢٠).

وإزاء التحديات الإجتماعية والإقتصادية والسياسية التى فرضها النمو الحضرى المتسارع فى معظم الأقطار العربية الآن، بدأت قضية التنمية العمرانية تفرض نفسها على صانعى القرار، وخاصة ما يتصل منها بالأبعاد السياسية التى باتت تشكل واقعا حيا لا يمكن تجاهله، إبتداء من مظاهرات الطعام، حتى التطرف الدينى ونمو حركات الإسلام السياسى.

وعلى الرغم من الإهتمام الملحوظ الآن ببرامج التنمية الحضرية، إلا أن ذلك فى الحقيقة لا يتجاوز حدود السطح الخارجى دون الوصول إلى العمق أو الجوهر ليصل إلى حد القضاء على المشكلات القائمة والتى قد تحمل فى طياتها نذير سوء، وعلامة خطر لا تعرف لها حدود. وفى النهاية فإن ذلك كله يضفى أعباء جديدة على الحكومات والبلديات العربية المعينة، ويفرض على المجتمع والدولة فى الوطن العربى ضرورة تدعيم سلطانها حتى تستطيع الوفاء بمهامها فى قطاع العمران.

سادسا: طبيعة التجارب التنموية وأثرها على البيئة العمرانية:

وفى هذا الإطار نستطيع أن نتبين للوهلة الأولى أن نمط التنمية السائدة فى المجتمع يلعب دورا أساسيا فى تشكيل ملامح البيئة العمرانية

فى هذا المجتمع، وبالتالى يترك تأثيرا، ويخلف ظلالا على البيئة العمرانية. فلقد أنجزت بعض الأقطار العربية برامجها التنموية إستنادا إلى قطاع عام (مصر - سوريا - العراق - الجزائر) بينما إعتمدت أقطار أخرى (الأقطار النفطية مثلا) فى تحقيق ذلك، على نموذج آخر تسيطر فيه الدولة على كافة مصادر الدخل، وخصوصا العائدات النفطية وإعادة توزيعها على مجالات الإنفاق المختلفة.

وبطبيعة الحال، فإن خطط التنمية الإقتصادية والإجتماعية، قد إستندت إلى تحيز حضرى واضح، على حساب المناطق الريفية والبدوية على السواء، بكل ما يحمل ذلك من دلالات عميقة حول تكريس الفوارق بين مختلف الأقاليم فى الدولة، وإنتقاص لمفهوم العدالة الإجتماعية بين السكان فى هذه الأقاليم، فضلا عن زيادة أعباء المرافق والخدمات المتاحة فى هذه المناطق والمدن الكبرى التى باتت لا تستطيع الوفاء بمتطلباتها من ناحية، وتدنى الكفاءة الإدارية للأجهزة المسئولة عن تقديم هذه المتطلبات من ناحية أخرى (٢١) .

وتجدر الإشارة أيضا إلى قضية هامة غير منبتة الصلة بأثر الممارسات التنموية على تشكيل البنية العمرانية، ونعنى بها نمط الإستثمارات وأساليب توزيعها على المناطق المختلفة فى الدولة. فقضية الإستثمارات، تمثل متغيرا عظيم الأهمية من الناحية الإجتماعية والإقتصادية. وفى معظم الأحيان، وفى حالة مصر بالذات، يتوقف أنماط الإنفاق الحكومى وتوزيع الإستثمارات فيما يتصل بالجانب الحضرى أو الجانب المعمارى على الصدف والمناسبات، أكثر مما يرتبط بمخططات أو إستراتيجيات بعيدة المدى، حيث إرتبط الإهتمام بجنوب الوادى فى مصر، بممارسات

العنف والإرهاب أكثر مما إرتبط ببرامج أو خطط متكاملة للتنمية المتوازنة بين الشمال والجنوب (٢٢) .

سابعا : ملاحظات ختامية :

والآن، هل يمكن أن نخلص إلى بعض التوجهات الأساسية المفسرة للنمو العمرانى فى الأقطار العربية فى فترة ما بعد التشكل؟

يؤكد إستعراضنا لبعض الملامح العامه السابق ذكرها، أن هناك مجموعة من الإعتبارات الهامة التى يجب الإلتفات إليها، ونحن بصدد مناقشة قضية العماره العربية... لعل أهمها :

(١) أهمية البعد الطبقى بكل ما يحمله من معايير للدخل والثروه ومعتقدات وأفكار وأساليب حياة.. ألخ، على الأنماط المعمارية السائدة والشائعة فى المجتمع. حتى يقال أن الخريطة الطبقية ترسم معالم الخريطة المعمارية، وإن التركيبب الطبقى يلعب دورا أساسيا فى تشكيل الأنماط المعمارية فى المجتمع.

(٢) أن الأيديولوچيا الحضرية قد وسمت العماره العربية بطابع خاص، فدفعت بها إلى مصاف العماره الأوربية بعد أن كانت فى إسار القرون الوسطى منذ مبتدأ القرن الراهن، وباتت العماره الحضرية العربية (الحالة المصرية)، تماثل الفن المعمارى الإيطالى، وساد المجتمع المعمارى الجديد، نوعا من المحاكاة لفنون القصور والدواوين، فقصر عابدين فى القاهرة من طراز قصر بكنجهام، وقصر الأمير محمد على يحمل طابع عهد الملك إدوارد فى إنجلترا... ألخ. وهى كلها رموز إيديولوچية، دفعت بالعمران الوطنى لأن يرتقى إلى مصاف العمران الأوربى فى ذلك الوقت .

(٣) ولا يمكن أن نتغافل هنا دور الدولة والبلديات فى تدعيم التحولات العمرانية فى الأقطار العربية، فقوة الدولة - وأجهزتها - وضعفها، ينعكس على سياستها المعمارية، وعلى العقد الإجتماعى فى قطاع العماره والإسكان. وعلى قدر إحكام هذا العقد ، على قدر الحفاظ على فنون البيئة المعمارية، ورقيها والإتجاه المستمر نحو صونها .

(٤) ولعل الإعتبار السابق مباشرة، يدفعنا إلى النظر فى تأثير بعض التحولات الطبقية والملامح الأيكولوچية، على أنماط العماره فى المدينة العربية، حيث التباين فى توزيع الدخل والثروة قد عجل بظهور ونمو أحياء البؤس وأحزمة الفقر داخل وخارج المدن العربية.

(٥) الإلتفات إلى تأثير التحولات الإجتماعية والإقتصادية التى شهدتها المدينة العربية على مجمل الأنماط المعمارية الحضرية وبخاصة فى المدن التقليدية، حيث تتباين وتتداخل وتتعايش مختلف الأنساق المعمارية الحضرية من عصور متباينة، لتشكل نوعا من إزدواجية المدينة القديمة الجديدة المعروفة فى حضر الوطن العربى مثل الجزائر والرباط وتونس والقاهرة وغيرها. وما يزيد من حدة هذه الإزدواجية، الإختلاف الكبير بين المدينة فى شتى جوانب الحياة، فتتصف المدينة القديمة بطابعها التقليدى، والتصاق منازلها، وإزقتها الضيقة الملتوية المتشعبه، وتشابك أسواقها التجارية، ومحلات الحرف اليدوية ، والمقاهى والمطاعم الشعبية، وإزدحام سكانها، وفقرها. وعلى العكس من ذلك تتصف الأحياء الحضرية الجديدة بالطابع الأوربى الحديث، وتوزيع وإرتفاع منازلها، وإتساع شوارعها وإستقامتها، وتوافر السلع والبضائع الإستهلاكية المستوردة وتوزيع سكانها، وإرتفاع مستوى معيشتهم .

(٦) وأخيرا، فإن لطبيعة الإستراتيچيات التنموية، أثرها البالغ على البيئة العمرانية، حيث يمثل التوازن فى الإنفاق الحكومى وحسن توجيه الإستثمارات بين الأقاليم المختلفة فى الدولة، دورا أساسيا فى إنجاز بنية معمارية ملائمة، تعمل على إشباع الحاجات الإجتماعية والجمالية للسكان على إختلاف شرائحهم الإجتماعية والإقتصادية، وعلى تباين مواقعهم الأيكولوچية فى المجتمع.

المصـــــادر :

(١) خالد السلطانى، حديث فى العمارة، الموسوعة الصغيرة، الكتاب رقم ١٥٦، دائرة الشئون الثقافية والنشر، بغداد، الجمهورية العراقية، د.ت، صص ٥/٦ .

(٢) حسن فتحى، العمارة العربية الحضرية بالشرق الأوسط، محاضرة ألقاها الأستاذ المهندس حسن فتحى بجامعة بيروت العربية، جامعة بيروت العربية، بيروت، لبنان، ٢٩ نيسان ١٩٧١، ص٦ .

(3) Le Corrbusier, Oevre Complete 1910-29, Zurich,p. 128.

(4) Christian Norberg Schulz, The Demand for Acontemporary Language of Architectuer, Art & Design, December, 1986.

وقد ترجمت هذه الدراسة ونشرت فى الدورية التالية :-

- الثقافة العالمية، العدد (٣٦)، المجلس الوطنى للثقافة والفنون والآداب، الكويت، سبتمبر ١٩٨٧، ص ص ١٢١ ، ١٣٢ .

(٥) حسن فتحى، مرجع سابق ، ص ص ٩/١٠ .

(٦) خالد السلطانى، مرجع سابق، ص ص ٢٣/٢٤ .

(٧) المرجع السابق مباشرة، ص ص ٢٤/٢٥ .

(٨) أرمجارد بونتنك، الأبعاد الثقافية للعماره وتخطيط المدن فى أوربا، فى: المجلة الدولية للعلوم الإجتماعية (عدد خاص عن المستوطنات البشرية بين القديم والحديث)، العدد السادس والثلاثون، اليونسكو العربية، القاهرة.

(٩) المرجع نفسه، ص ٩٤.

(١٠) السيد الحسينى، الأبعاد الإجتماعية والثقافية وتأثيرها على البيئة العمرانية، فى: أعمال الندوة الثالثة التى نظمتها أكاديمية البحث العلمى والتكنولوچيا بعنوان: تأثير الأبعاد الإجتماعية والنفسية على تصميم المسكن والتجمعات السكنية، مركز بحوث الإسكان والبناء، القاهرة، ٢٣ أبريل ١٩٩٦، ص ٢٠ .

(١١) محمد حافظ، النمو الحضرى فى المجتمع المصرى: دراسة بنائية تاريخية، مكتبة مشالى الجامعية، المنصورة، ١٩٩٥، ص ١٢٠ .

(١٢) المرجع السابق مباشرة ، ص ص ١٢٠/١٢١ .

(١٣) محمد حافظ، الملامح العامه للنمو العمرانى فى مدن مصر : قراءة سوسيولوچية فى خطط على مبارك، المجلس الأعلى للثقافة: ندوة على مبارك رائد التحديث فى مصر، القاهرة، نوفمبر ١٩٩٣، ص ١٢ أنظر أيضا ص ٤٣ .

(١٤) السيد الحسينى، المدينة:دراسة فى علم الإجتماع الحضرى، دار المعرفة الجامعية، الأسكندرية، ١٩٩٤ ، ص ٢٤٦ .

(١٥) محمد حافظ. دور الأنظمة البلدية فى تنظيم الخدمات العامه فى مدن مصر مع إشارة خاصة لمدينة الأسكندرية، فى : حولية كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية، جامعة قطر، الدوحة ، قطر ، ١٩٨٩ ص ص ٢١٧/٢٤٣ .

(١٦) محمد حافظ، التحضر والتحولات العمرانية وتأثيرها على البيئةالعمرانية، فى : أعمال الندوة الثالثة لأكاديمية البحث العلمى والتكنولوچيا، مصدر سابق، ص ٣١ .

(١٧) حليم بركات ، المجتمع العربى المعاصر : بحث إستطلاعى إجتماعى، مركز دراسات الوحدة العربية ، بيروت ، لبنان ، ١٩٨٤ ، ص ٩٤ .

(١٨) محمد حافظ، التحضر والتحولات الإجتماعية وتأثيرها على البيئة العمرانية ، مصدر سابق، ص ص ٢٣/٣١ .

(١٩) السيد الحسينى، المدينة العربية فى تحول، مقبولة للنشر فى : حولية كلية الإنسانيات والعلوم الإجتماعية ، جامعة قطر ، الدوحة قطر .

(٢٠) محمد حافظ، التحضر والتحولات الإجتماعية وتأثيرها على البيئة العمرانية ، مصدر سابق ، ص ص ٣٣ .

(٢١) المصدر السابق مباشرة ، ص ٣٠ .

(٢٢) السيد الحسينى ، الأبعاد الإجتماعية والثقافية وتأثيرها على البيئة العمرانية، مصدر سابق ، ص ٢٣ .